حين صارت نساء عَدَن خيامًا سوداء تتحرّك

هدى العطّاس

كدّسَنَا الخوف في غرفةٍ في منزلنا في عدن: 14 فتاة، كبيرتنا في الرابعة والعشرين والصغرى في الثامنة. يصمُّ آذانَنا صريرُ عجلات الدبّابات في صيف العام 1994 اللّاهب بنيران الحرب التي شنّها النظام في اليمن الشماليّ، متلفِّعًا بالحفاظ على ما يُسمّى «وحدة اليمن» التي أُعلنت في العام 1990.

كانت جحافل قوّاتهم تجتاح مدينتَيْ عدن. وغوغاء أصوات الجند المُقتحمين في زهو انتصارهم، تنهش أذني الصغيرة آنذاك، وهُم ينهبون المدينة ويُروِّعون سكّانها.

كنتُ وثلّة من فتيات على مشارف الأنوثة، ومن نازحاتٍ هربًا من الحرب. كانت الغرفة التي تكوّمنا فيها شبه آمنة من نيران القذائف. لكنّ فرائصنا ترتعد خوفًا من ذاك المجهول القادم إلينا على شكلِ فتوى أصدرها شيوخ الدّين لنظام علي عبد الله صالح، وقضت بجواز «سبي نساء الجنوب وقتْلِ رجالهم ونهْب أموالهم» باعتبارهم ـ أي سكّان جنوب اليمن، في نظر نظام الشمال وقبائله وشيوخ دينه وجنرالات جيوشه ـ شيوعيّين مَلاحِدة، ويجوز قتلهم وأسرهم وسبي نسائهم، بحسب الفتوى المذكورة.

أذكر ـ كأنّني لا أزال أعيش اللّحظة تلك ـ خوفنا، رعبنا، هلعنا، فيما نفكِّر في منجىً من المصير المرعب الزاحف إلينا من على بُعدِ خطوات: أنختبِئ في خزائن الملابس؟ تحت الأسرّة؟ أم تحمل كلٌّ منّا سكّينًا تخبِّئه في صدرها لمُواجَهة الغاصبين؟ جنود «الشرعيّة اليمنيّة الوحدويّة»، كما سمّوا أنفسهم آنذاك.

لعلّ مَن دَخَلَ الغرفة التي كنّا مكدّسات فيها تنبَّه لأنفاسنا المكتومة هَلَعاً، فيما عيوننا شاخصة إلى شاشة التلفزيون نُتابع نذيرَ الهزيمة الوشيكة لما يُسمّى «الجيش الجنوبيّ»، وزحفَ «قوّات الشمال»، قوّات تثبيت الوحدة بالدمّ. كانوا خليطاً من جيشٍ نظاميّ وحشود قبليّة مسلَّحة وجماعات مليشياويّة جهاديّة عادت من أفغانستان. وها هُم يدخلون مدينتنا بمُحاذاة بحر العرب، بعدما أثخنوها بقذائف «الكاتيوشا» التي لم يتوقّف تساقطها الكثيف عليها طوال شهرَين من الحرب، وخلّفت حفرًا هائلة في جسدها، وجَعلتْ منازلها وكثرة من أحيائها ركامًا.

***

صبيّةً كنتُ، الكبرى بين إخوتي. وها نحن محاصرون بحمحمة موت وشيك، نتشبّث نحن الأخوة الخمسة بعنق أمّنا كلّما روَّعتنا أصوات القذائف والانفجارات. وهذا ما حدث عندما انفجر صاروخ في حيٍّ قريب، فارتجّت نوافذ منزلنا. وذلك المشهد الذي بثّه التلفزيون غارَ عميقاً في ذاكرتي: نسوة معفّرات بالتراب يصرخنَ، يضربنَ وجوههنّ بأيديهنّ. وجَمْعٌ غفيرٌ يلملم أشلاءً بشريّة متناثرة. كنتُ هلعة، مشدوهة وحزينة، فيما أتابع الكاميرا تقترب من وجه شيخ متعظم بارز الأخاديد، منكَّس الرأس، يلطم صدره منتحبًا بناته الشابّات اللّواتي قضيْنَ دفعة واحدة. رأيت أجسادهنّ مطروحةً أرضًا، مدماة، حاسرة أثوابهنّ عن بعض أجزائها الملطَّخ بياضها بالدم.

وأشدّ ما أوجعني وأثار شهيق عبراتي مشهد المرأة التي تبكي عنزاتها السبع، وصور جثامين الشياه، وخليط دم بشريّ وحيوانيّ يرسم خطوطًا ولطخًا على الأرض.

وفي تلك اللّيلة نمنا جميعًا في سرير والدتنا، أكفّنا قابضة على معصمَيها وبأقدامها ورؤوسنا على بطنها. صبايا أربع صغيرات وولد وأمّهم على سرير واحد. وفي الصباح طَرقت باب منزلنا عائلاتٌ خمس من الأصدقاء والمعارف، نازحين إلى منطقتنا من مناطق اشتدّت فيها المعارك.

***

لم يكُن الخوف من السبي والاغتصاب وحده ما يُهدِّدنا ويُخيفنا. كان العطش يتهدَّدنا في أيّام عديدة، والظلام يجعلنا أشباحاً خائفات من الأشباح المتخيّلة أو غير المرئيّة، بعدما قُطعت المياه والكهرباء عن عَدَن.

وكنّا بناتٍ وصبيّاً صغيراً وامرأة، لا رجل معنا أو شاب يذهب مع الرجال لجلْب الماء من بئرٍ ليست بالقريبة. جيران أمدّونا ببعض قناني ماء عذب للشرب وطبخ ما تيسّر في البيت. لكنْ للغسيل والاغتسال، كان علينا، أختي التي تليني وأنا في النهار، ملء غالونات من ماء البحر القريب، وحمْلها إلى البيت مرتعبات.

ونفد الماء العذب يوماً من بيتنا، فطبخت أمّي المعكرونة بماء البحر. وما زلتُ أذكر صعقة الملح على لساني والتهاب شفتي. وأختي الأصغر الطفلة لم تستطع أكْل المعكرونة، فأخذت تبكي فأسكتت أمّي جوعها ببعض التمر.

حدث ذلك قبل نزوحِ أُسرٍ خمس إلى منزلنا، وفيهم بعض فتية وأب أحد العائلات، فتوّلوا مهمّات جلب الماء، ونجونا من غائلة العطش وماء البحر.

***

وذات ليلة تجدّدت المعارك واشتدّت في منطقتنا التي كانت قريبة من جبل تقع فيه مخازن أسلحة، يبدو أنّ الجيش القادم من الشمال كان يُريد إنهاءها قبل دخوله المدينة. فقرّرت أمُّنا أن نُقيمَ في الطابق الأرضي من منزلنا ذي الطبقات الأربع. وتكوّرنا في غرفةٍ صغيرة تتوسّط الغرف، ظنًا أنّها الأكثر أماناً من القذائف.

كان ينير ليل رعبي وأخوتي وأمّنا مصباحُ الكيروسين الذي تنوص شعلته الواهنة، فتتمايل أخيلة أجسادنا على الجدار مع أزيز الانفجارات. وفي ليلةٍ أرادت أختي الخروج من الغرفة لقضاء حاجتها، فرافقتها أمّي وأنا ـ هكذا كنّا نترافق في حركتنا داخل البيت ليلاً لنتغلّب على الخوف ـ إلى دورة المياه التي تفصلها عن غرفتنا صالة بمنْوَرٍ مفتوح حتّى أعلى المنزل. حَملت أمّي الفانوس لتنير لأختي التي تركت باب الحمّام مفتوحاً. وفجأة ارتجّ منزلنا ومادت أرضه تحتنا. سقط الفانوس من يد أمّي وانطفأ. وهرعتُ وإيّاها مُسرعتَيْن إلى إخوتي الصغار النائمين في الغرفة، فيما تعالت من ظلام الحمّام الدامس صرخات أختي، قبل أن تتلمّس طريقها وسط الارتجاجات وأصوات الانفجارات المتتالية.

في الصباح اكتشفنا شظايا متفحِّمة مُتناثِرة في أرجاء صالة المَنوَر. وسمعتُ أمّي تحمد الله فيما هي تُحدِّق في الشظايا. وظلَّ الرعب يُلازم ليالينا التالية. وبعد أيّام أصفرَّ جسمُ أختي، ووَقعتْ طريحة الفراش. ويستحيل الحصول على دواء فكلّ الصيدليّات مُغلَقة والطرق يحفّها الخطر والمستشفيات مُحاطة بالجند، فطبَّبتها أمّي بخلطات أعشاب غلتها في الماء. وبعد شهر وأكثر فتح لنا طبيبٌ نعرفه عيادته. ولمّا عايَنَ أختي قرّر أنّها مصابة بيرقان الكبد بسبب الخوف. وقال إنّ مرضها متقدِّم، ولا بدّ من نقلها إلى الخارج... شفيت أختي، ولكنّها ما زالت إلى اليوم تعاني آثار ذلك المرض.

***

في بداية تمّوز/يوليو وضعت الحرب أوزارها بهزيمة الجنوبيّين. واقتحمَتْ قوّاتُ ما سُمِّي بجيش «شرعيّة الوحدة» عَدن، وتوقّفت المعارك. ثمّ استُبيحت المدينة للنهب. رأيتُ بعَين الصبيّة التي كَبرتْ في داخلي على أزيز الانفجارات والرعب، مدينتي عدن تُنهَب وتُدمَّر، ورأيتُ أهلها يخرجون من مخابئ منازلهم في الأيّام التالية، شاحبين في مدينة مهلهلة منكوبة، يتآكلهم ويتآكلني الخوف والقهر والهوان والضياع.

على شاشات التلفزة تابعنا مشاهد «جند الوحدة» مُنشغلين بالمنهوبات: يحملون المكيِّفات ومَراوِح التهوية، أواني المنازل وأثاثاتها. شاهدناهم يخلعون أبواب المنازل الطرفيّة ويحطّمونها، وكذلك نوافذ السيّارات وأبوابها لسرقتها. واقتحموا المؤسّسات الحكوميّة. كان مبنى التلفزيون والمتحف هدفهم الأهمّ. عبثوا بمحتوياتهما. سرقوا مكتبات التلفزيون الفيلميّة، المخطوطات وقطع الآثار واللّقى. ولم تنجُ الجامعة من نَهْبِهم: مُختبراتها، طاولاتها، كراسيها، ومدرّجاتها. والمَدارِس نُهبت بدَورها.

***

ومكَّن النظامُ المُنتصِر الإسلاميّين المتطرّفين من المدينة، مكافأة لهم على نصرته. رأيتهم ينتشرون على منابر مساجدها يواصلون ما جاء في فتوى إباحة الدم والتكفير ـ وراحوا يُهدِّدون بالويل والثبور مَن يُسمّونهم «المارقين الكفرة، والشيوعيّة البائدة».

حتّى أنّني في السنين اللّاحقة حين أشتدّ عود وعيي وعودي وأشتدّت مُواجهتي معهم عبر كتاباتي، سوف أسمع تهديدهم وتكفيرهم لي من على منبر المسجد القريب من منزلنا.

وكان حدسي قد استشعرَ هول التغيير وقتامة القادم إلينا، حينما بعد أشهر قليلة من انتهاء الحرب قابلتُ صديقتي التي كانت من النازحات وأسرتها إلى منزلنا. لم أعرفْها، إلّا بعدما أزاحت قليلاً النقاب عن وجهها. كان قفّازان سوداوان يُكفِّنان كفَّيها وعباءة سميكة سوداء تكفِّن جسمها حتّى قدمَيها. أصبحتْ خَيمة من سوادٍ يتحرّك.

***

كانت قد مضت أشهر على اقتحام عدن، عندما انتشرت حوادث ضرب الفتيات في الشوارع. الفتيات السافرات وجوههنّ وشعورهنّ. أَطفأوا السجائر في وجوه بعض اللّواتي لم ينصعْنَ لعسف المُتطرِّفين.

وهيْمن الرعب والحذر على النساء وأهلهنّ. رعب تُغطّيه حملة تعبئة بمحاضرات دينيّة تنشط في إلقائها مَن سُمّين «المُرشدات» الداعيات، ينسربن إلى الجلسات المنزليّة والتجمّعات النسائيّة... التي كنّ يحاولنَ استقطابي إليها، فأرفض الذهاب. ولم يدر في خلدي يومها أنّ مواجهاتي معهم ستشتدّ وتسمِّم حياتي المُقبلة، عندما تزايد إدراكي ووعيي، وامتلكتُ يراعاً للكتابة والتعبير.

وسرعان ما اختفت مظاهر الاختلاط بين الجنسَيْن في الحياة العامّة بنشاطاتها وأدوارها. وانتهى الاختلاط تماماً في الأعراس والحفلات، وشاع ما سُمِّي «العرس الإسلامي»، لتلبس العروس فيه والمدعوّات الحجابات، ومُنع الرجال من حضوره. ثمّ انتشرت أشرطة «الكاسيت» محمَّلةً بمُحاضراتِ الدُّعاة وثقافة الوعيد الأخرويّ وعذاب القبر ونار جهنّم.

ضرب الخوف والرعب عميقاً في الوعي الاجتماعيّ وفي العلاقات الاجتماعيّة، في مُجتمع وإن كان مدينيّاً، وغلّفته الأيديولوجيا الاشتراكيّة لفترة، فإنّ جذوره قبليّة مُحافِظة، ومُحاطٌ بريفٍ وقرى وكتلٍ بشريّة لم تَعرف التحديث. وهي أصبحت مَوئِلاً لجماعات الإرهاب العائدة من أفغانستان، ضمن صفقة بين الحكومة والمُجتمع الدوليّ آنذاك.

تغيَّرَ سلوكُ الأُسَر. فغَصبتْ أُسَرٌ كثيرة بناتها على ارتداء النقاب خوفاً من تعرّضهنّ لمُضايقاتٍ واعتداءات. وفي أثناء سنواتٍ قليلة انغلق الناس بشدّة، واختفت النسوة في الجلابيب السود.

حتّى وجدتني وقلّة قليلة من الفتيات نَسير في الشارع بشعرٍ مكشوف، قبل أن نُرغم جميعًا على ارتداء العباءة وتكفين شعورنا بالحجاب، درءًا للخطر الذي سنتعرّض له، إذا أصررنا على مَسلكنا المُشين في أعراف (الغُزاة) المُتطرِّفين دينيّاً. وكان ذلك اللّباس الذي سَمَحَ لي بكشف وجهي أخفّ وطأة وأهْوَن شرّاً في نظري من تلك الأكفان السوداء وطبقاتها الغليظة التي لفّت أجساد معظم النسوة في مدينة القيظ الدائم الذي يشوي الحَجَر.

الحربُ والغزو الشماليّان وما رافقهما من نهب وفتاوى دينيّة، وإطلاق سلطة الجماعات التكفيريّة في الفضاء العامّ وعسْكرته، وتنصيب عناصرها ودُعاتها حرّاس عفّةٍ وولاة على المُجتمع يحميهم النظام ويدعمهم... كلّ هذه الأحداث قوَّضت ما حقَّقته نساءُ عدن والجنوب من مُكتسباتٍ حقوقيّة، وكلّ ما بُنِي من مظاهر انفتاح وعصرنة.

***

أقلع بعض زميلاتي عن مُواصلة دراستهنّ. وزادت حالات الزواج التقليديّ، وخصوصاً بين الصغيرات. ونشط دَور الخاطبة مجدَّداً، بعدما كان قد تلاشى. وانخرطَ كثرٌ من أقراني الذكور في الجماعات التكفيريّة. وهَجَرَ بعضهم المَدارِس مُطلِقين لحاهم معتكفين في المساجد، أو التحقوا بثكنات تدريب النشىء في المعاهد الإسلاميّة التي أنشأها «حزب الإصلاح» (الإخوان المُسلمون) أكبر الأحزاب الإسلاميّة في اليمن، بدعْمٍ من النظام الحاكم.

ولَفظت الحريّات العامّة والخاصّة أنفاسها الأخيرة. وحُرِّم الاختلاط بالقوّة، وتعرّض للضرب كلُّ شاب وفتاة، رجل وامرأة، يجلسان على شاطئ دونما إظهار ورقة زواج. وإنْ أظهراها فجلستهما تُعتبر فجوراً أو انحلالاً، وخصوصاً إذا كانت الفتاة سافرة الوجه.

***

وكان إلغاء قانون الأسرة من التدابير الأولى التي أعلنتها حكومة «الوحدة». وهو قانون سُنَّ في الجنوب قبل الوحدة، في أثناء حُكم دولة «جمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة». وتضمَّن منظومة متقدِّمة من القوانين التي ساوت في الحقوق بين المرأة والرجل، وسمحت بالزواج المدنيّ، وبحقّ المرأة في تزويج نفسِها بنفسها، ومنحتها الحقّ بالطلاق والحضانة، بالسفر واستخراج وثائق الهويّة والوثائق الرسميّة من دون ولاية رجل.

ألغى القانون الجديد كلَّ هذه الحقوق. ومَنَعَ تزويج المرأة إلّا بموافقة ولِيّها، بل منحه حقّ تزويجها من دون موافقتها. وشُرِّع زواج القاصرات الذي كان ممنوعاً في القانون السابق. وأعاد العمل بما يُسمّى «بيت الطاعة»، وسُمح بتعدُّد الزوجات من دون حسيب، وهو كان مقنَّناً في السابق، ومربوطاً بالتسبيب. وفرضت ولاية الرجل على المرأة في مناحي حياتها وحقوقها كلّها.

وكان هذا كلّه كما أسلفنا، انتكاسةً كبرى لمُكتسبات النساء التي حقَّقنها في جنوب ما قبل الوحدة.

***

وتغيّرت طبيعة الحياة في مدينة عدن. وهي المدينة التي شهدت تطوُّراً وانفتاحاً اجتماعيّاً هيّأهُما لها حُكم الاستعمار البريطانيّ طوال مِئةٍ وثلاثين عاماً، وأعقبه الاستقلال وحُكم الحزب الاشتراكيّ الذي سعى إلى التحديث الاجتماعيّ، مُصطفّاً في ضِفّة المُعسكر الاشتراكيّ والاتِّحاد السوفياتيّ في تلك الحقبة. وسُمِّي نظامه بالشيوعيّ في مُحيطه الإقليميّ.

ورُوِّعت النُّخب التي تربّت وشهدت حقبة ما قبل «الوحدة»، خافت وتقوقعت وانساقَ بعضها في مَوجة تيّارات الإسلام السياسيّ.

ومرّت السنون، وراوحت مواقع النساء ونشاطهنّ العامّ بين انتزاعهنّ بعض الحقوق وبعض النجاحات الفرديّة، وبين المُطالَبات والمُجابَهات مع عسف القوانين الانتهاكيّة، وهجمة الخطاب المتطرِّف المدعوم من الأحزاب والجماعات الدّينيّة. وكذلك من المنظومة الحاكمة التي استَخدمت قضايا النساء وحقوقهنَّ للمُساوَمة والمُقايَضة السياسيّة. وفي ظلِّ احترابٍ داخليٍّ وصراعٍ سياسيٍّ ودولةٍ يتنازع النفوذَ فيها العسكرُ ومشايخ القبائل وجماعات التطرّف الدّينيّ.

***

وحلَّ العام 2011 حاملاً أحلامَ غدٍ جديد. تقدَّمت النساءُ ساحات انتفاضة ما سُمِّي «الربيع العربيّ». ورأينا مشهداً عريضاً لمَسيراتِ النساء مُتّشحات بالسواد. لكنّنا احتفَينا بحضورهنّ الفيزيائيّ بتلك الكثافة غير المسبوقة، قبل أن نكتشف استخدام الأحزاب السياسيّة الانتفاضة الشعبيّة، وتكثيف حضور النساء فيها، وخصوصاً الناشطات المُنتميات

إلى تلك الأحزاب. وهي الأحزاب التي انحرفت بالانتفاضة إلى مُساوَماتٍ في سياق الصراع السياسيّ والحزبيّ على السلطة.

***

وفي مستهلّ ربيع 2015 دَهَمَتْنا حربٌ جديدة. أُصاب بهيستيريا، فأروح أُحدِّث نفسي بما سبق. متكوِّرةً ألوذ بركبتيَّ وأنشج مُنتحبةً وحيدة في غُربتي البيروتيّة التي كنتُ أتلمّس بداية حياتي فيها.

في بيروت رحتُ ألطم هواء غرفتي التي شعرتُ بجدرانها الأربعة تضيق وتُطبِق على جسدي، مُستعيدةً رعب تلك الأيّام من صيف 1994، فيما أتابع أخبار جحافل ميليشيّات الحوثي وقوّات الطاغية علي عبد الله صالح تقتحم مدينة عدن، في اجتياحٍ جديد يُعمِّق الجرح الذي أصاب جنوب اليمن في حرب 1994. جرحٌ لا يزال ينزّ صديدَه ولم يُشفَ منه بعد.

محرقة جديدة يصلني لهيبُها، في صوت أمّي وأخواتي وبكاء أطفالهنّ الهلعين المروَّعين. أتكوّر بعد كلّ مكالمة هاتفيّة معهنّ، أضمّ ركبتيَّ اللّتَين ليس لي من ملاذ سواهما في الغربة. أضمّهما منتحبةً بصوتٍ ظننتُ العالَم كلّه يسمعه. فأكتشف أن لا أحد يسمعه سواي. وليس لي سوى شاشة التلفزيون ومواقع التواصل الاجتماعيّ أستقي منها فجائعي اليوميّة. أرى مشهد اللّهب يتصاعد من البناية بجوار منزل أهلي. أتّصل ممسوسة، فلا أحد يجيب. ثمّ يأتيني نشيجُ أختي وكلماتها المتقطِّعة: اطمئِنّي لقد غادرنا اليمن جميعنا. تُخبرني عن طفلَيْها اللّذَيْن ينهضان في اللّيل زاعقَيْن وقد تبرّزا على نفسيهما. تذكّرتُ اصفرارَ أختي وتحوّل جسدها خيطاً نحيلاً على فراش المرض في الحرب السابقة.

أُسائل نفسي ومُلوحة الدمع الذي ينهمر تلسع لساني. دمعٌ لا يزال يوميّاً أو أسبوعيّاً حتّى اللّحظة يغسل وجهي كلّما سمعتُ خبراً عن استشهاد قريب أو عزيز في أتون حرب وقتل وتجويع وتشريد لا نعلم لها نهاية. وليس من تفسيرٍ يشفي تساؤلي الجريح: لماذا نستمرئ قتلَ بعضنا وأنفسنا؟!

ولا يصادي نحيبي سوى نحيب نائحات في جهات الأرض التي تشتّت عائلتي في مهاجرها. عائلتي وعائلات كثيرة من معارفي وأقاربي وأصدقائي في الوسط الأدبيّ والأكاديميّ، ونشطاء المُجتمع المدنيّ.

الهجرة والتشرُّد في أصقاع الأرض هو العنوان الأشدّ قتامةً في هذه الحرب، وخصوصاً النُّخَب. وشملت الحرب اليمن كلَّه، وخبرت «نخب الشمال» هذه المرّة كذلك مذاق عسف الجند وجحافل القتل، بعدما صمتت عن مظلمة الجنوب. وها هي تعيش ما يشبه تلك المرارة، مرارتنا. هي العبرة. فلطالما كانت النُّخب في بلداننا العربيّة الأكثر مخاتلة، وهي مَن يُناط بها إحقاق الحقّ، فإذا بها تتخلّى عن دَورها وتترك مكانها لبيادق الجبروت والظلم والجهل.

***

غير أنّ في هذه الحرب المستجدّة الجديدة، وَعت النساءُ ما قد ينتظرهنّ، وخصوصاً المُبدعات والناشطات منهنّ، اللّواتي حقَّقْنَ قدراً لا بأس به من انتزاع حقوقهنّ، فنجَّيْن بأنفسهنّ بالمهاجِر، وتلقّفتهنّ الغربة، وحيدات أو مع عائلاتهنّ.

وتتراءى إليّ يوميّاً قصص مغادرتهنّ «أرض اليباب»، يرُمنَ أرضاً آمنة تحفظ إنسانيّتهنّ، قبل أن يتعرّضْنَ للانتهاك. انتهاك تُهدِّدهنّ به يوميّاً سدنة الحروب ومِشعلوها. بعضهنّ يُحقِّقن ذواتهنّ الفرديّة، ويُحاوِلْنَ قدر استطاعتهنّ على مستوى المنظّمات المعنيّة بالسلام، وفي أروقة جماعات الفنّ والإبداع. يُجاهدْنَ لمدّ دلو الإنقاذ إلى قعر الجبّ، لعلَّهنّ يُنقذن ما تبقّى من جمالٍ في بلدهنّ المحترق.

يكمن خطر الحرب الحاليّة، إلى جانب القتل والدمار اليوميّ، في تجريف البنية الاجتماعيّة من نُخبها المتعلِّمة والمثقَّفة. تجريفها من كلّ محفِّزات السِّلم والأمن الاجتماعيّين، وإباحتها للغوغاء وتجّار الحروب، والسقوط في هوّةٍ بلا قرار، ولا نعلم متى نتوقّف عن الانحدار فيها.

خطر الحرب أنّ وقتنا فيها ليس وقتاً مُستقطَعاً من الزمن البشريّ، بل وقت منسيّ. وربّما خبِّئ في «مخزن عتيق» يحجبه غبار نيزك سقط سهواً في صحراء الربع الخالي، فسرقه خلسةً جدٌّ عربيّ نزِق. أو لعلّه وقتٌ علق في ظفائر السبايا في غزوةٍ بين قبائل العرب التي لا تكفّ تتغازى وتحترب في ما بينها!